

قصر القنادسة دراسة أثرية معمارية للدكتور محمد الطيب عقاب

كن للوجود الإسلامي المغرب الإسلامي الأثر البالغ لنمو حركة العمران، و النشاط البشري، حتى في أقاصيه الجنوبية، الذي أساسه الاقتصاد و حركة التجارة . و كان الفضل في هذا التوسع يعود إلى الدولة الرستمية (٧٧٦ - ٩٠٦ م) التي مهدت السبيل إلى منافذ الغرب الأفريقي و الجزء من جنوبه فلذلك تعد بحق الرائدة في تجارة الصحراء بدلا من التوجه نحو الشمال، و هو ما رسخ و لو بطريقة غير مباشرة مبادئ الحضارة الإسلامية، حيث مكنت السكان من البقاء بل و التطور المعيشي و تعميق معالم مناحي الحياة الاجتماعية، و تحسين المجال الصناعي لدى المحليين، ثم قبل ذلك ساهموا في استقرار السكان بمناطقهم بشكل تحفيزي لصناعاتهم المعروفة لديهم.

لذلك وجدت مراكز عمرانية، تميزت بالتفاعل مع الوافدين عليهم مثل المرابطين، الذين وجدوا في إقليم الجنوب الغربي مجالا خصبا لنمو حركتهم الشاملة، و تمدين المنطقة، لتصبح من المدن الحواضر فيما بعد، عرفت ثقافات متعددة ، نظرا لاستعداد السكان على الاستيعاب و المساهمة في نشرها ، حتى تنوعت تلك الثقافات المعروفة في الحضارة الإسلامية، و منها على الخصوص نمو حركة التعليم بشكل ملفت للانتباه، حتى عدت بعض مدن الجنوب الجزائري من أقطاب مدن العلم .

مفهوم القصر:

من الشائع لدى السكان الصحراويين أنهم يطلقون أو يسبقون أسماء مدنهم بالقصر. ولذلك فنحن أمام مدينة تعرف بقصر القنادسة. و يضبط لفظ القصر بنغمة خاصة يغلب النطق البدوي ، حيث يفخم حرف القاف مع فتحه، و تسكين حرف الصاد، و هذا النطق يتطابق مع النطق المعروف عند سكان شبه الجزيرة في الجنوب .

ومعنى " القصر " كما ضبطته كتب الحسبة مثلا، مصطلح خاص بأهل المغرب الإسلامي ، وبهذا الاسم توجد عدة قرى و مدن المغرب الإسلامي الكبير، و أن أغلبها اتخذت المواقع و الموضع المرتفعة، مما يوحي للباحث أنها كانت عبر التاريخ حصونا في بدء أمرها. و يمكن الاكتفاء بهذا التعريف الخاص بالمناطق المذكورة، لأن القصر له عدة مفاهيم و دلالات، فلغويا هو المنزل المتخذ في الموضع المرتفعة، أو هو ثانيا بناية فخمة واسعة. غير انه تطور مفهومه ليصبح في مفهومه الضيق يعني مقر الحاكم للأمة .

المحيط الطبيعي:

بالرغم من أن القنادسة تقع في محيط صحراوي بحت، إلا أن موقعها يمتاز بما هو معروف في الأطلس الصحراوي، من أرض خصبة، ووفرة للمياه، فضلا عن وجود واد قير المتفرع عن واد بشار، و كثرة الصخور البركانية، و الطين الصلصالية الناجمة عن المياه الجوفية بها، وهو ما جعلها تتعت (أي القنادسة) بأشباه الواحات.

فهى، اذن، في موقع منبسط من الأرض، قليل الارتفاع، محاط بسلسلة جبلية ذات مواد رسوبية ناتجة عن الحركة الالتوائية المائلة إلى منبسطة، مما نتج عنها قشرة من الطبقات الرسوبية الصلبة، الناتجة عن العصر الطباشيري من الزمن الجيولوجي الثاني ، خاصة الحجارة الكلسية، و طبقة من التربة الجيرية و الرملية و غيرها من المواد الرسوبية، مع عروق من الحجارة الصلدة ذات السطوح المستوية نسبيا في أشكالها المختلفة، و المميزة بنقاوتها التكويني .

وقد سمح هذا الإطار الطبيعي من توفير مادة البناء المتنوعة، دون حاجة إلى الإكثار من نمط الطابية إلا في أضييق الحدود، حتى أن بعض المباني السكنية بنيت بالحجارة غير المصقولة، لاستوائها طبيعياً في معظمها .

و القنادسة تقع على خط محصور بين ٣٠ و ٣٢ درجة عرضاً شمالاً و خط طول ٦ درجة غرباً. وهي على الجهة الغربية لولاية بشار، غير بعيدة إلا بسبعة عشرة (١٧) كلم. و هي بعيدة عن محور خط الاستواء، إلا أنها تتميز بمناخ مستقر صيفاً و شتاءً، وان كان المناخ فيها يتميز بالحرارة و البرودة الشديتين، وكل في فصله الخاص، فمثلاً درجة حرارة شتاء لا تزيد عن ٩ درجات، يتخللها المد الحراري في الليل و النهار ما يساوي اثنتا عشرة درجة (١٢). في حين يكون متوسط مقياس الحرار صيفاً أربعين درجة، مواز للمد الحراري المتوسطي ثمانين درجة. و هذه الدرجات المذكورة ليست عالية على طاقة الإنسان، فهي مقبولة و محتملة إلى حد كبير. لذلك فإن المناخ أحد عوامل الأساسية في استقرار الإنسان، بل و جلب الباحثين عن الاستقرار بها، لتوفر عامل الطمأنينة الباعثة على الرخاء و الازدهار، مع ما يمكن أن يكون الداعي الرئيسي لاستقطاب اليد العاملة الماهرة في النشاط العمراني و الفني، تبعاً لروح مؤسس المدينة و راعيها الروحي الشيخ محمد بن أبي زيان، المتوفى عام ١١٤٥ هـ .

نشأة القنادسة :

المتواتر لدى السكان أن نشأة القنادسة ترجع إلى اضمحلال الدولة المرابطية (١١٤٧ م) على يد الموحيدين (١١٣٠ - ١٢٦٩ م)، و التي تفرقت (شذر مذر)، وان القليل منها وصل إلى القنادسة، وأن أقدم قسم منها هو القصبية، التي يتقدمها الجامع العتيق، في الجهة الجنوبية الشرقية، و هو جزء صغير، يمثل حارة لا يمكن أن تحتوي الا على مجموعة من العائلات المتقاربة فيمت بينها .

غير أن الإشكال الذي يمكن أن يقع فيه الباحث هو ما معنى القنادسة ؟ فالذي حفظته الذاكرة الشعبية انه يفيد طلبية و تلامذة العلم و قدسيته، و عند البعض الآخر يعني العجول . و هنا يقودنا البحث إلى المقاربة بين كلمتي القنادسة (العجول) واكجان ، الواقعة قرب مدينة سطيف بشرق الجزائر، التي تعني في ظاهرها (الكلاب)، و التي يمكن أيضاً أن تعني هي الأخرى تلامذة العلم و طلابه مثل القنادسة تماماً، لأن ايكجان أثبتت بعض الدراسات المتأخرة كانت تتوفر بها حركة التعليم بصورة ملتفتة للانتباه، و لا ريب في ذلك ما دامت الدولة الفاطمية قد انطلقت منها .

وإذا كان الاعتماد في هذا البحث الموجز قائماً على الرواية الشعبية و بعض ذواكر الكبار، فلأن مظان أمهات القواميس العربية، مثل لسان العرب و محيط المحيط، لا تفيد الباحث شيئاً عن مثل هاتين الكلمتين .

و ربما تفيد كلمة (القنادسة) من جهة أخرى معنى المؤانسة و التآلف بين الموجودين و الوافدين عليهم، خاصة اذا تعلق الأمر بحاملي العلم و التعليم، الرامي إلى النور المشع على الإنسان و على المنطقة معا .

ومهما كان الأمر فان السؤال يبقى مثاراً، مادام اسم (القنادسة) جديداً بالنسبة لمجموعة كانت موجودة قبل هذا الاسم، فما هو يا ترى هذا الاسم القديم ؟.

فذلك يمكن الاقتصار على نشأة القنادسة الرسمية بطول صاحب الزاوية محمد بن أبي زيان ، في نهاية القرن العاشر الهجري، بعد عودته من تجواله العلمي في المشرق العربي و بعد أن استقر به المقام بالمغرب الأقصى. و لهذا نتأكد أن النشأة نابعة من تأسيس الزاوية الزيانية وليس المدينة، ومع ذلك يمكن ربط ازدهار المدينة (قصر القنادسة) بحلول الشيخ بها، و ذلك لتعميرها بدون شك، ووفرة شروط الحياة، رغم انحرافها و ليس بعدها عن محور القوافل التجارية، التي كانت تمر على الشيخ لأخذ تأمين الطريق ، لما كان يتمتع به الشيخ من بركات و التقدير من لدن أهل الحل و العقد، و لما كان يظهره الشيخ أيضاً من تواضع، و القيام بأعمال الخير لفائدة المجتمع، حتى انه قيل

كان يباشر عملية حفر الآبار بنفسه للسابلة على المنطقة، و أنه كان على شظف من العيش وهو ما لوحظ ميدانيا على بيته البسيط، الخالي من العناصر المكملة لإتقان المبنى مثل العقود و الأعمدة المعالجة معماريا و عمائريا، على عكس ما فعله أبنائوه و أحفاده فيما بعد .

إذن، فقصر القنادسة من حيث مظهرها المعماري غير محصنة إلا طبيعيا من خلال السلسلة الجبلية، فهي مكشوفة، ولا تحتوي على أبراج المراقبة (لاحظ الصورة الجوية) . هذا اذا أضفنا إلى ذلك عدم علو مئذنة الجامع العتيق، بصورة ملفتة للانتباه، لتكون مرشدا للقادمين إليها، خاصة و أنها تقع في منحدر بالنسبة للقادم إليها من الشمال الشرقي. و هذا لا يعني ان القوافل التجارية لم تكن ترتادها ، بل كانت تؤمها لأخذ أمان الطريق و التبرك معا .

التركيب العمراني :

من المسلم به ان قصر القنادسة كان يتميز بثلاثية التركيب البشري ، و هذا يعني ان الهيكل العمراني للمدينة كان يشتمل على الوحدات الكبرى (الحارات) بكل مرافقها الإنشائية للوحدات العمرانية.

و الوحدات الكبرى هي، القصبية في الجنوب الغربي، و معها ملحقات أخرى كالجامع العتيق، و دار الضيافة المحاذية للوحدة الثانية التي هي وحدة (حارة) الأشراف و معها الزاوية و المسجد . و الى الغرب من القصر تقع وحدة السكان العاديين، بينما تقع في مواجهة الأشراف و حدة الحرفيين التي تنتهي بساحة القصر، و إلى الجنوب توجد وحدة اليهود .

و تحتفظ ذاكرة السكان باسمين للأبواب التي كانت موجودة بالقصر ، و عددها أربعة أبواب، و البابان هما : باب عين الدبر (٩) و باب السوق، فالأول يقع في الجهة الغربية، و الثاني يوجد في وسط القصر تقريبا . و هذا يعني ان القصر كانت تجري عليه أحكام التحكم في الدخول و الخروج في أوقات معينة، و ان وجود الباب مؤشر للمرور منه إلى المنطقة المقصودة، دون اعتبار لعامل آخر، و أن التداخل في المسالك غير مسموح به حتى لأهل القصر أنفسهم، الا بمعية من أهل الحارة نفسها

هذه التقييدات أوجبته ظروف التعبنة العامة من ضوابط المدينة الإسلامية بصفة عامة، حيث وجد تأثيرها في المادائن المتأخرة نسبيا، مثل قصر القنادسة، و ذلك لسهولة التعرف على الأهالي في الحارة في شؤونهم الخاصة بما يضبط سلامة الحالة الاجتماعية لهم (لاحظ مخطط القصر) . غير ان الملاحظ في تقسيم القصر عمائريا وجود اليهود قرب سوق و قرب وحدة الحرفيين، مما يدفع إلى القول ان طبقة الصناع و الحرفيين تكون نسبة كبيرة منهم . فهم (أي اليهود) معروفون في هذا المجال الحيوي، اللهم الا الجانب الفني المتصل بالمعمار و زخرفه . و إذا كانت هذه الملاحظة على قصر القنادسة، فهي تنطبق أيضا على قصر بني عباس بالخصوص، اذ بمجرد الدخول إليه تصادفك حوانيتهم التي ما تزال قائمة إلى الآن .

ويلاحظ في تكوينات القصر العمرانية أنها اتصفت بالأبعاد الحضرية المنبثقة من الدين الاسلامي، و تعاليمه السمحة، مما سمح للمعمار أن ينشئ عدة حارات، تحوي بداخلها عدة عائلات ذات الأعصاب و الفروع لها، تقسمها شوارع كبرى، تراوحت بين الاستقامة أحيانا، و الانكسارات المقصودة بتعاريجهما المتزنة معا، بقصد ضبط حركة المؤثرات الطبيعية و البشرية في آن ، و كبحها في ظروف حاسمة .

و الشوارع الكبرى في قصر القنادسة تعرف بالدروب، تنفرع عنها الأزقة المؤدية إلى الحارات . و تسمى الدروب (الشوارع) بأوصاف خاصة تتصف بها ، مثل درب الظليمة (المظلم) كونه مغطى كله تقريبا، رغم انه على جانب القصر، وهو يؤدي من المسجد الزياتي (الحديث) إلى الجامع العتيق أو إلى المقبرة كما سميت الدروب بأسماء الوحدات العمرانية، مثل درب أولاد سيدي أحمد (أحد أولاد صاحب الزاوية الزياتية)، أو نسبة إلى موقع جغرافي يمتاز بطبيعة خاصة، مثل

درب الرميطة أو الموجه إلى جهة معينة للوحدة العمرانية الهامة، مثل درب السوق، أو هو امتداد لدرب الباب، مثل درب باب عين الدير .

و القسم الهام من القصر، هو المعتبر قديما، القصبة في الجهة الغربية من الجنوب، و كل مبانيها تمتاز بالبساطة، فقليل منها المتوفر على الطابق العلوي، بل أن معظمها ينتهي بجناح واحد يعرف عند أهل القنادسة بالمنزه في حين يعرف عند أهل تاغيت - مثلا - بالمصرية، و هذه الأخيرة (أي المصرية) عند أهل القنادسة عبارة عن جزء مقطوع من السقيفة، لاستقبال الضيوف أول لقاء .

لهذا يمكن تحديد أنواع مباني (مساكن) قصر القنادسة بثلاثة أنواع، البسيطة المدعومة بدعامة واحدة أو اثنتين، إلى المتوسطة من ذوات الأربع دعامات بطريقة التوازي، إلى المسكن الفخم المتطور و المتوفر على كل مرافق الوحدات المعمارية، و القائم على جميع الاطار أو المثال المعماري و الفني و الزخرفي، مع تعدد في الدعامات الحاملة للطابق العلوي، و التنوع في أشكالها الهندسية، مع علامات خاصة تمتاز بها خصوصا، مثل تشطيف أركانها حتى كادت أن تصبح مثمنا الأضلاع، و قليل منها ذات البدن الأملس، بنوعية المستقيم و الانسيابي .

على ان العنصر المعماري المشترك في كل الأنماط المذكورة للمباني هو تنكيب المداخل عن بعضها، حتى لوحظ على أحد المساكن التطويرية تحويل مدخله بعدما كان موازيا لمدخل آخر، مما يوحي تنقل ذات المسكن إلى شخص آخر لا يمت بصلة القربى إلى القديم .

و المداخل المنكسرة سمة كل المباني القديمة، فلذلك وجدناها قائمة في قصر القنادسة خاصة و ان المنطقة تتميز بمناخ صحراوي، فهي مانعة للظواهر الاجتماعية، كما هي مانعة للظواهر الطبيعية، فإذا كانت ظاهرة التستر من شيم المجتمع الإسلامي، الا ان التصرف إزاء الظاهرة الطبيعية أمر لا بد منه، من كبح قوة الرياح، إلى منع تسرب الزواجر الرملية، حتى يبقى السكان و لو لفترة في راحة من زحف الرمال على منازلهم، خاصة و ان معظم مطابخ الديار قريبة أو موجودة في أحد أركان وسط الدار (الفناء)، و كذلك أداة الإنارة معلقة في جدار الفناء معظم الوقت، و بالخصوص في فصل الصيف .

يتكون المسكن ذو الدعامة الواحدة أو الاثنتين بدون أروقة، الا من جناح واحد، وهو عادة يكون من جهة المدخل، لوجود الجدار الحاجز مواجهة للمدخل تقريبا، ثم لتمكين بناء السلم، و بالتالي ينتهي بسطح من غرفة واحد فقط، بينما المستوى الأرضي يتكون من وحدات اخرى للتخزين إلى غرف النوم، و كل وحدة مقسمة إلى أقسام جزئية، لاستغلالها أفقيا و عموديا، خاصة غرف النوم، التي يقسم طرفيها إلى جزأين علويين، و هو ما يسمى بـ "السدة" بالنسبة للجزء العلوي، لوضع شؤون الغرفة .

غير ان المساكن العديمة الطابق العلوي بقلص فئاؤها حتى يصبح عبارة عن فوهة مربعة ، و لذلك و جدنا السكان يسمونها " عين الدار " كناية عن صغر حجمها طبعاً . وقد يرجع صغر حجم هذه الفتحة " العين " من خلال تسقيف فضاء الصحن إلى التحكم في عملية زحف الرمال على المسكن أثناء العواصف، و كذا إلى التقليل من أشعة الشمس على مرافق البيت ككل (مخطط ٢) .

و قد ينطبق هذا الوصف على باقي المساكن التي من ذوات الدعامات الأربع، الا أن هذه الأخيرة تمتاز عن الأولى باحتوائها على تراكيب معمارية معقدة، أساسها الأروقة و الدعامات ذات التكلف البنائي المعقد بنائيا و هندسيا، منتهية بعقود مختلفة الأنماط و الأشكال، من أهليلجية إلى ذات المركزين و الحديوية، مع المبالغة في استتالة منابئها العمودية، حتى طغت الدعامة على العقد نفسه، و قد تكون مستديرة خاصة الجانبية منها (صورة ٦) .

العناصر المعمارية :

العقود /

يمكن الإشارة إلى أن بعض عقود قصر القنادسة فريدة من نوعها و التي ستركز عليها الحديث، لتتبعها و طرافتها، مع الإشارة إلى الاهتمام بالعقود المعروفة في الحضارة الإسلامية ، كعقود نصف دائرية، أو التي تتكون من مركزين أو بأربعة مراكز، وهي كلها تمتاز بالرشاقة في هندستها مع تحليها بالأثر الزخرفي القائمة على العناصر الهندسية و النباتية المجردة ، لكونها ذات صلة بالمخزون الحضاري الإسلامي وقد استطاع المعماري أن يزاوج بين العقد الواسع في مركز الرواق إلى الضيق المخصور في طرفيه، وهي سمة ظهرت في غرب الجزائر في الفترة المتوسطة للحضارة الإسلامية بالمنطقة الغربية . كما استحدثت بالمنطقة عقود أخرى تمتاز بمنحنيات متعكسة بينهما زاوية قائمة (صورة ٨) تنتهي قمتها بتويج حاد الشكل . و بعضها يأخذ شكل القلنسوة الضامرة، نتيجة تدابر أرباع الدوائر، بحيث تبدو منفصلة عن العقد الا بانكسار ينزل إلى بدنه . و الغريب في الأمر ان هذا العقد اقتصر وجوده على قصر القنادسة في دواخل البيوت فقط، في حين يلاحظ وجوده في بعض المناطق من الجزائر، مثل الأغواط و تندوف على الجدران الخارجية لبعض بيوتها الفخمة، و هو أمر لم يحدث في العمارة الصحراوية بل و المدينة الا في بعض الجهات فقط .

وامتد ابتكار الفنان القنادسي إلى أشكال أخرى للعقود، أهمها العقد الاهليجي (شبه مقوس) المحلاة حافته بأصاف الدوائر المتعكسة تعاقبا في شكل تموجات منتظمة، و أن كان هذا العنصر الزخرفي للدوائر شمل أيضا العقود الأخرى كالعقود العقودية (شكل ٨) أو المنتهية بزاوية حادة نسبيا (شكل ٥) أو الحودية (شكل ٣)، مع اختلاف في أشكال تلك الدوائر بين صغيرة و كبيرة، و البعض منها متصلة بخطوط منكسرة (شكل ٣ و ٨) .

كل العقود - تقريبا - تبتدئ بمنبت موحد، قوامه حلقات دائرية مبتدئة أو منتهية بزاوية قائمة، و المعبر عنه محليا " بدرج كتف " تقليدا للعنصر التشبيكي للمعينات على أبدان مآن بلدان المغرب الإسلامي بعد الموحدين على وجه التحديد .

ان هذا النوع للعناصر العماثرية / الزخرفية ينبئ عن تطور ملحوظ في الثقافة الفنية المتصلة بالبناء الصحراوي، و الذي لم يكن ليوجد لولا الإشعاع المنبعث من وجود الزاوية الزاوية بتلك البلدة الصغيرة . و هكذا يلاحظ مدى تعلق السكان بذلك الإرث الروحي المدعوم بالوجه الحضاري مع بعض التطور عليه .

وسائل الدعم / (الدعامات - الأعمدة)

بالرغم من ان وسائل الدعم ، سواء منها المكعبة أو المثلثة أو المستديرة في مختلف الحضارات كانت تتخذ من الكتل الواحدية تقريبا، الا أنها في مساكن قصر القنادسة من نتاج الإنسان المحلي، جراء اكتفائه بما جادت به المنطقة من المواد البنائية لها خاصة الحجارة و الجير . اذ عمد البناء الفنان إلى بنائها بحجارة صغيرة، حتى يسهل عليه ضبط محيط العمود او الدعامات، فكلهما لا يتعدى قطرهما ٤٠ سم، و علوهما على الأكثر 1,65 سم .

وتوزعت الدعامات و الأعمدة حسب حاجة المبنى إليها، فهناك البيوت المدعومة بدعامات او عمود واحد، او باثنين لكليهما، لوجود رواق واحد في البيت، و لم يوجد المدعوم بثلاثة أعمدة، في حين دعمت البيوت الفخمة التابعة لأولاد شيخ الزاوية بأعمدة متقنة الصنع، خاصة منها ذات البدن الانسيابي، مما يوحي بتنوع اليد الماهرة المستقدمة من المغرب الأقصى ، حسب الروايات الشفوية المتداولة لدى السكان (صورة)

التيجان /

لا تتوفر بيوت القنادسة على التيجان المعروفة في عمارة المغرب الإسلامي، الا على التي شكلها البناء الصانع في شكل قرم بهيأة سلات، مع تشكيلات مروحية، كأنها تيجان من الحضارة

الفرعونية (زهرة اللوتس) مشفوعة من قاعدتها بعدة حلقات متفاوتة التدرج . وهناك أشكال من التيجان قمعية الشكل مزدانة بحلقات واحدية من أسفل و أعلى، تنتهي بحدارة او وسادة هي بمثابة قاعدة لمنبت العقد .

غير ان هناك بعض الأساطين عديمة التاج إلا من شطف أركانها عند رجل العقد (صورة ٦) .

هكذا يلاحظ بعض التنوع في العناصر العماثرية لعمارة بلدة القنادسة الدالة على التواصل الحضاري لمنطقة لم تكن شيئاً مذكوراً، أيام ازدهار مدينة سجلماسة التاريخية .

الأثر الفني /

و قد تجلى للباحث أهمية هذا التواصل الحضاري بقصر القنادسة كثرة اهتمام الفنان الصانع بزخرفة بواطن العقود و حوافها و كوشاتها بكثير من الصيغ الفنية، رغم حداثة البلدة، و بعدها عن مناطق الجذب الحضاري. و مع ذلك تجلت عناصر الزخرفة بتنوعها الكثيف، ونضجها الفني ، فهي قد شملت مواضيع كثيرة بدءاً من التشبيكات الهندسية المكونة لوحداث ثرية امتدت إلى ما يشبه الأطباق النجمية و جامات الوريدات الجصية و تقاطع الخطوط الاطرية المحفوفة حول الوحدات الزخرفية الأخرى . كما تنوعت الخطوط في أوضاع عدة، صيغت كأشعة وهاجة، او دوائر مشعة أيضاً بأوضاع مختلفة أو مربعات متقاطعة و مزدوجة الأضلاع، و غيرها من التشبيكات المعروفة في الفن الإسلامي، على ان بعض الزخارف الهندسية معروفة منذ الأزل في مختلف الحضارات القديمة، كالتطابقة مع البلدان بشبه الجزيرة العربية التي امتدت إلى صحرائنا بالجزائر، و خاصة عندما استقر المزابيون (الخوارج) بسدراته، إحدى مدن ورجلان (صورة) .

و يتصل بهذا الإرث الفني للقنادسة بمدينة سدراته أيضاً الزخرفة الكتابية، المتضمنة كلمتي " العافية و الباقية " وهي منتشرة في كل بلدان المغرب الكبير، و بعض بلدان العالم الإسلامي، ودام استعمالها في العصر الحديث إبان العهد العثماني بالجزائر و تونس على وجه الخصوص، بنفس النمط و الطراز .

التصوير /

و لئن بلغت الزخرفة المجسدة بأبعادها البارزة مستوى مثيلاتها في المدائن العربية الأخرى ، فان التصوير كان على نفس النسق من النضج الفني حيث طليت سقوف بعض البيوت الفخمة بمختلف العناصر الزخرفية و بأشكال عديدة لمواضيع الزخارف المجسدة لروح الثقافة السائدة بالقنادسة، بعد أن دببت فيها الحياة العلمية، و ساد فيها الأمن و الطمأنينة، نتيجة ما كان يتمتع به شيخ الزاوية من التقدير و الاحترام من طرف الحجاج الوافدين عليه من مختلف المناطق القاصية . ان هذه الظروف الهادئة سمحت للفنانين من تقديم مهاراتهم الفنية طبقاً لما وصلت اليه المعارف الفنية آنذاك، فكانت الألوان على السقوف الخشبية هادئة، و فاتحة، يغلب عليها الأخضر و الأزرق السماوي، محفوفة بنطاقات حمراء أو صفراء، حتى تبدو المواضيع المحورية واضحة و جلية، و التي يغلب عليها الطابع النباتي المجرد و التشبيكات الهندسية، كلاهما كان على نمط التماثل و التناظر، أو التعاقب لوحدة زخرفية واحدة .

و يجب التأكيد من خلال هذا الثراء الفني و المستجد في آن بالقنادسة على الحركة الدائبة، و على الرغبة الجامحة للفنانين من تقديم ابتكاراتهم الفنية، التي تبدو في بعض الأحيان ذات طابع خاص، و كأن الفنانين هنا كانوا يتسابقون لإرضاء شيخ الزاوية و أولاده، و ذلك رغم صغر المدينة، و مع ذلك فالباحث يجد فيها جزءاً من تراث المنطقة العريق مجسد فيها بأجلى صورته و بأكثر حداثة .

ان هذا الولوع بالتصوير الفني و لمواضيع كثيرة و على مواضع متعددة يوحي بشكل قطعي على تنامي الثقافة الفنية، و ما امتازت به من مسحة التجديد، بما يمكن القول ان العالم الخارجي قد نقل

أو عوض في بعض البيوتات، سواء على السقوف أو على الجدران، بدافع إدخال الطمأنينة و الراحة النفسية على ذويها.

وضعية قصر القنادسة الحالية /

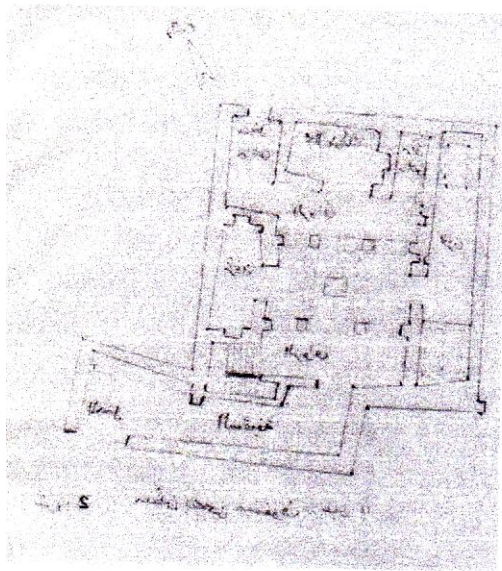
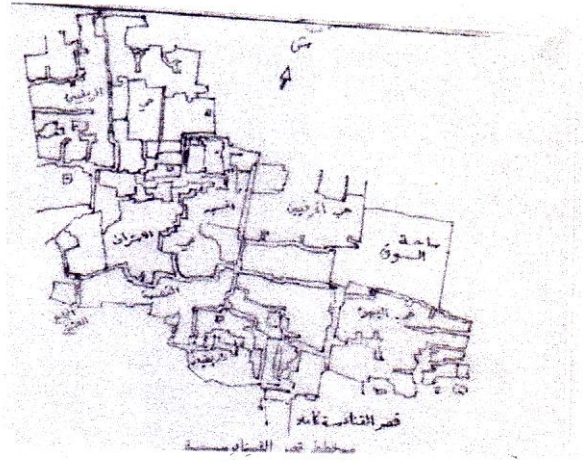
من مؤسف الإشارة إلى أن القنادسة في وضعية يرثى لها، جراء هجرة أهلها عنها تقريبا، رغم سلامة جل بيوتها و مساكنها، و توفرها على كامل المرافق السكنية و الصحية للإنسان و يعود السبب الرئيسي في تركها، إلى رغبة الناس في الاستقرار بالمدن بعد الاستقلال، لوجود فرص العمل غير الفلاحي ، حيث الحياة الإقتصادية عموما بها أكثر من المناطق المعزولة كقصر القنادسة . كما يذكر لجوء الناس إلى بناء المساكن بالوسائل الحديثة، رغم علمهم بعدم صلاحيتها في المنطقة الصحراوية.

و لذلك توجد معظم المساكن و الدور الفاخرة مهدمة الأجزاء، خاصة سقوفها الفنية المشبعة بالتصاوير الفنية ذات الألوان الزاهية الدافئة، و مع ذلك أثيرت فكرة الترميم، حيث وزعت مشاريع الترميم على المؤسسات المتضرعة في ذلك . وربما يشرع في العملية قريبا، لأن الدائرة الأثرية تحصلت على المبلغ الخاص بها، ضمن ما خصصته الدولة من الميزانية للجنوب .

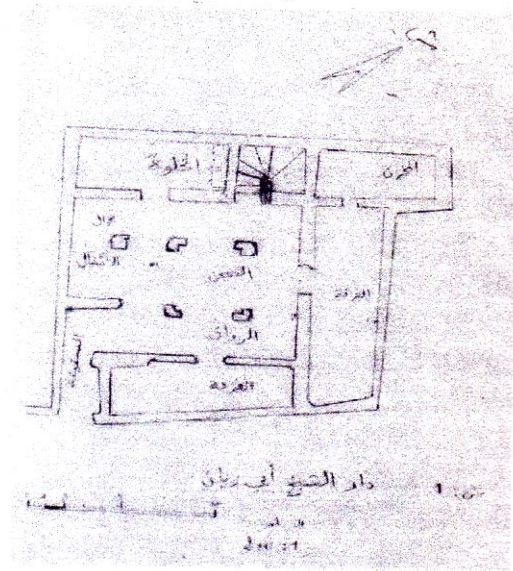
المراجع الاستشارة /

- ابن منظور (لسان العرب) ط. مصر، د.ت، ج ٦.
- أوجييرا (الصحراء الغربية) باريس ١٩١٩ (بالفرنسية).
- باشمينسكي و دونيس (خمسة دراسات حضارية و معمارية في الجنوب الغربي الجزائري)، جامعة العلوم و التكنولوجيا بوهران ١٩٨٥ (بالفرنسية).
- تيراس (الفنون الزخرفية للمغرب الأقصى) باريس ١٩٢٥ (بالفرنسية).
- حسن زكي (أطلس الفنون الزخرفية و التصاوير الإسلامية) بيروت ١٩٨٩.
- الحسن الوزان (وصف إفريقيا) ط ٢، ج ١، بيروت ١٩٨٣.
- دائرة المعارف الإسلامية (مادة القصر و الدار)، ط ١٩٢٧ (بالفرنسية).
- عبد الستار عثمان (المدينة الإسلامية) الكويت ١٩٨٨.
- عبد الستار عثمان (عمارة سدوس التقليدية) الإسكندرية ١٩٩٩.
- قابوس (في الصحراء: فنون و رموز) باريس ١٩٥٨ (بالفرنسية).
- قالوتي (الحديقة و المنزل العربية بالمغرب الأقصى) باريس ١٩٢٦ (بالفرنسية).
- المجيلدي (كتاب التسيير في أحكام التسعير) تقديم و تحقيق د. موسى لُقبال، الجزائر ١٩٨١.

مخطط قصر القنادسة



شكل ٢ مسكن بصحن
مسقوف "عين"



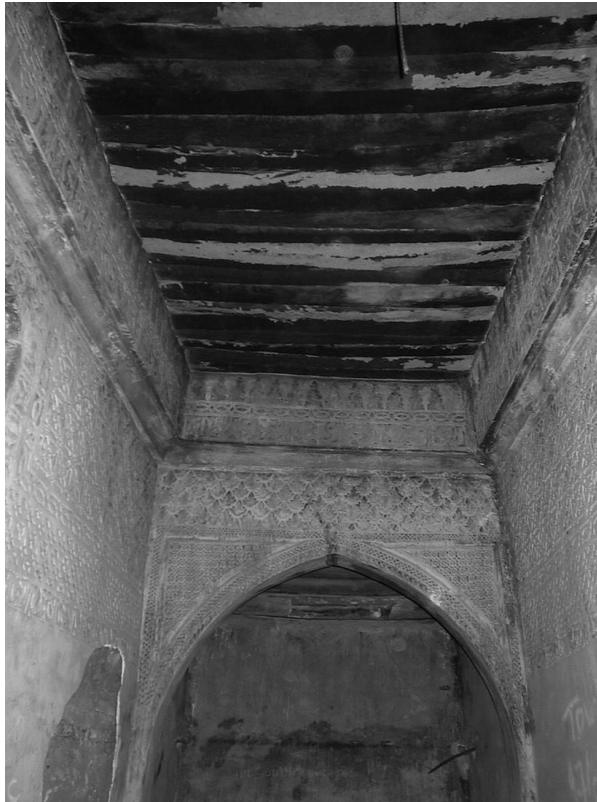
شكل ١ دار الشيخ أبي زيان



ش ٣: جزء من الغرفة المركبة



ش ٤: قبة الإيوان العاطلة



ش ٥: الطرف العلوي من الغرفة



ش ٦: منبت العقد و الزخرفة الهندسية



ش ٧: جامعة من الزخرفة الجصية



ش ٨: أحد طرفي الغرفة المشيع بالزخرفة الهندسية